سلامة المقاييس.. على سلم البناء

«١»

لم يكن عجباً من العجب ـ والمشركون مقيمون ومقعدون على عبادة الأوثان والإعراض عما دعاهم إليه رسول الله عليه الصلاة والسلام من الإيمان والتوجه وجهة السلامة في البناء والبعد عن فوضى الجاهلية.. لم يكن عجباً من العجب ـ والأمر كذلك ـ أن يكون حكمهم على الأعمال امتداداً لهذا الخلل الفكري والسلوكي الذي يلف حياة الفرد والمجتمع.

غير أن الله تبارك وتعالى ـ وهو الرحيم بعباده ـ كان ينكر عليهم ما هم فيه، توجيهاً لهم إلى الصراط المستقيم، وتبياناً للناس عموماً ما هي مقاييس الخير والأعمال المقبولة عند الله، وما هي مقاييس الشر والأعمال التي لا وزن لها عند الله.

ومحور ذلك كله: أن تكون عقيدة التوحيد أساس البناء والمقوِّم الأول من مقومات النماء. ومن هنا كان ما رأيناه في سورة التوبة من الإنكار على هؤلاء المشركين جعلهم سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام كإيمان من آمن بالله واليوم الآخر وجاهد في سبيل الله. علماً بأنهم يعملون ما يعملون وهم على شركهم مقيمون مقعدون، يصحب ذلك استكباراً واستعلاء على الآخرين، يدلان على أن النية الخالصة ليست من عملهم في شيء.

وما دامت القضية ترتبط بمقاييس تتصل بوحي السماء؛ فهي نور لا ظلام فيه، وصفاء لا غبش ينتمي إليه: فأجدر بأمتنا اليوم أن تكون تلك المقاييس نصب الأعين عند تحديد المنطلقات وعند تقويم عمل الآخرين..

يحملنا على هذا التذكير: أن قوله تعالى في سورة التوبة: ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لا يَسْتَوُونَ عِندَ اللَّهِ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١٩﴾﴾... الآيات.. لم تقتصر أبعاده على العهد المكي، بل

كانت له حتى في العهد المدني بعض الظلال؛ فقد أقبل المسلمون ـ كما روى الطبري ـ على العباس وأصحابه الذين أُسِروا يوم بدر يعيِّرونهم بالشرك، فقال العباس: أما والله لقد كنا نعمر المسجد الحرام، ونفك العاني، ونحجُّ البيت، ونسقي الحاج ـ أي الحجيج ـ. فأنزل الله ـ كما يقول العلماء ـ ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ﴾ إلى قوله: ﴿وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ يعني أن ذلك كان في الشرك، ولا أقبل ما كان في الشرك.

لقد خرجت الفئة المؤمنة وهي قليلة العدد والعُدّة تقاتل في بدر تحت راية لا إله إلا الله، وخرج المشركون يقاتلون، عدواناً على الحق وبطراً ورئاء الناس تحت راية الشرك والعناد.. هذه هي الحقيقة.. فماذا عسى أن تصنع تلك الأعمال التي يقومون بها وهم على هذه الحال من معاداة الله ورسوله والمؤمنين؟!

إنها لن تصنع شيئاً ينفعهم عند الله ما داموا معرضين عن الحق يحاربونه وأهله ويعملون على هدم ما تريد أن تبنيه يد الإنسان الذي أشرقت في نفسه عقيدة التوحيد.

إنه الدرس البليغ الذي يجب أن يعيَه كل أولئك الذين يرتادون لأمتهم المسالك التي يستكمل من خلالها البناء، وتوضع الطاقات البشرية بأنواعها والثروات المادية موضعها الطبيعي الذي يجعلها في نماء يضاعف ـ على المدى ـ قدرة الأمة الذاتية، ويزوِّدها بما تحتاج إليه في رحلة المواجهة التي تطلع كل يوم بجديد.

وأقول: الدرس البليغ لأن أسباب نزول الآيات تشعر بأن الأمر مرتبط بالأصول التي يجب أن تكون ملحوظة عند أولئك الذين تؤرقهم هموم الأمة في كل عصر، كيما يتابعوا الطريق حتى يتحقق نصر الله لأهل الإيمان من جديد. فقد أخرج مسلم وأبو داود وعبد الرزاق في مصنفه وغيرهم عن النعمان بن بشير رضي الله عنه أن رجلاً قال: ما أبالي أن لا أعمل عملاً بعد الإسلام إلا أن أسقي الحاج. وقال آخر: ما أبالي أن لا أعمل عملاً بعد الإسلام إلا أن أعمر المسجد الحرام، وقال آخر: الجهاد في سبيل الله أفضل مما قلتم. فزجرهم عمر رضي الله عنه وقال: لا ترفعوا أصواتكم عند منبر رسول الله ﷺ وذلك يوم الجمعة، ولكن إذا صليت الجمعة دخلتُ

على رسول الله ﷺ فاستفتيته فيما اختلفتم فيه. قال: ففعل فأنزل الله عز وجل: ﴿ أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ﴾ ..إلى قوله: ﴿ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾.

هناك إنكار على المشركين وهنا إنكار على بعض المؤمنين ولكن أين هذا من ذاك، وهل تستوي الظلمات والنور؟!

* * *

سلامة المقاييس على سلّم البناء

«٢»

تعدد الروايات في سبب نزول قوله تعالى: ﴿ أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ ﴾... الآية: لا يقلل من الأهمية القصوى لارتباط العمل بالعقيدة الصحيحة، وضبط المعايير في منطلقات البناء وتوجيه الكفايات على أساس من هذه القاعدة العريضة سيما وأن ذلك على خط سواء مع وجوب أن تعمل الأمة دائماً على توفير الكفايات العلمية والعملية في كل ميدان من ميادين البناء الذي تقتضيه رسالة الإسلام، الرسالة التي توجه أبناءها إلى أن يتمثلوا دائماً قوله تعالى: ﴿ وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الآخِرَةَ وَلا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾ ﴾[القصص:٧٧].

أقول: تعدد الروايات لا يقلل من تلك الأهمية؛ لأن الروايات المرتبطة بمفاخرة المشركين بما يصنعون، وزعمهم أن صنيعهم المبتور عن عقيدة التوحيد يساوي الإيمان بالله والجهاد في سبيله، تلك الروايات تسير في اتجاه واضح لتبيان الحقيقة الأولى من حقائق البناء على صعيد الإنسان، وعلى صعيد المجتمع الذي يناط بالإنسان أن يرفع قواعده في الثقافة والاقتصاد والاجتماع وما إليها.. هذه الحقيقة أن العمل المرضيّ عند الله هو العمل المنبثق عن العقيدة الصحيحة «لا إله إلا الله محمد رسول الله».

أما الرواية التي تتحدث عن أن رجلاً من المسلمين قال: ما أبالي أن لا أعمل عملاً بعد الإسلام إلا أن أسقي الحاج، وأن آخر قال: ما أبالي أن لا أعمل عملاً بعد الإسلام إلا أن أعمر المسجد الحرام، وقال آخر: الجهاد في سبيل الله أفضل مما قلتم، فزجرهم عمر رضي الله عنه وقال: لا ترفعوا أصواتكم عند منبر رسول الله ﷺ وذلك يوم

الجمعة، ولكن إذا صلينا الجمعة دخلنا على النبي ﷺ فسألناه، فنزلت: ﴿ أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لا يَسْتَوُونَ عِندَ اللَّهِ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١٩﴾ ﴾.

أما هذه الرواية: فتضع المسلمين ـ وهم مؤمنون بالله واليوم الآخر ـ تضعهم على الجادة في تحديد القيم والمعايير ليكون سلوكهم العملي في صوغ الحياة، وفق الرسالة التي آمنوا بها منهج حياة من عند الله عز وجل.

ومن هنا منعت الآية أن يقعد القادر عن الجهاد بالنفس والمال متذرعاً بأنه يعمر المسجد الحرام أو يسقي الحاج؛ فالذي قاله الرجل الأول من أنه لا يبالي أن لا يعمل عملاً بعد الإسلام إلا أن يسقي الحاج..

والذي قاله الآخر من أنه لا يبالي أن لا يعمل عملاً بعد الإسلام إلا أن يعمر المسجد الحرام، كلا القولين فيه عزم على خير، ولكن بانحسار عن ساحات العمل والجهاد ـ مع القدرة ـ والاكتفاء بالتحرك المحدود.. إن الآية لا تبعث على الاستهانة بالعمارة أو السقيا، ولكنها توجه المسلمين ـ وهم يحملون أمانة البناء على أنقاض جاهلية يعانون من رواسبها في حياة الفرد والمجتمع، وفي جو عالمي مثقل بطغيان الوثنية وإهدار كرامة الإنسان ـ ولكنها توجه المسلمين ـ والأمر كما وصفنا ـ إلى أن الجهاد بمقدماته وحوافزه، وحقيقته العملية بذلاً وتضحية في سبيل الله لا بد أن يكون في مقدمة الأولويات التي تستأثر بالاهتمام. فالإنكار هنا حفز إلى علو الهمة وبيان لقيمة الجهاد؛ لأن عمل المؤمن ـ أياً كان شأنه ـ ما دام قائماً على العقيدة له وزنه عند الله، ولكن أمة يكرمها الله أن تكون خير أمة أخرجت للناس ويضعها على الطريق النيرة في بناء حضارة الإنسان، هذه الأمة لا بد أن تكون الأمة المجاهدة قبل كل شيء. علماً بأن الجهاد في سبيل الله لا يقتصر خيره على المسلمين، بل يعمّ غيرهم؛ لأنه نصرة للتوحيد والحق وإنسانية الإنسان بعيداً عن أي اعتداء أو ظلم

الأمر الذي يذكر بقوله جل شأنه في أعقاب الآية التي أضاءت بالإذن بالقتال: ﴿وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾﴾[الحج:٤٠] .

وعلى صعيد الواقع لابد للجهاد اليوم من العقيدة والعلم وتنمية كل الطاقات الفاعلة التي تكوِّن ذاتية الأمة وقدرتها على صنع قرارها بنفسها دون وكس ولا شطط، وهي على طريق الدعوة إلى الله وتحقيق الخير للجميع.

* * *

الإيمان.. ومقاييس البناء الحضاري

«٣»

في متابعة لما سلف من القول في هدي المعلم القرآني في سورة التوبة، نعود إلى مزيد من الاستنارة بالآية الكريمة التي بدئت بقوله تعالى: ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ﴾ وخَتمت بقوله جل جلاله: ﴿وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾لنؤكد أن عطاءها متسق تمام الاتساق مع رسالة الأمة المحمدية التي لا تستوي على سوقها في ميدان العمل والتطبيق، لتكون هي التي تنشىء الواقع: إلا بأن تتوافر لهذه الأمة عناصر الأمة المجاهدة كيما تكون بحق جديرة بالخيرية التي حملها قول ربنا في محكم كتابه: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾[آل عمران:١١٠]

فكما أنكر القرآن على المشركين دعواهم التسوية بين أعمالهم ـ وهم على شركهم ـ وبين الإيمان بالله واليوم الآخر والجهاد في سبيل الله: أنكر على بعض المؤمنين أن يغفلوا عن سلم الأولويات في رحلة البناء التي تتجاوز كل الحدود الصعبة، لتكون رحلة البناء للإنسانية كلها في ظل عقيدة التوحيد.. أنكر على بعض المؤمنين أن يغفلوا عن ذلك ـ إنكار الدفع إلى ما هو الأفضل على سلم الأولويات ـ وظهرت حقيقة ما ذهب إليه من قال: بل الجهاد أفضل كما في رواية النعمان بن بشير عن أولئك الذين تكلموا عند منبر رسول الله ﷺ وزجرهم عمر رضي الله عنه عن رفع الصوت ووعدهم بأن يستفتي رسول الله ﷺ بعد صلاة الجمعة فيما قالوه.

وحين نصحو على واحدة من أبجديات رسالة الإسلام من أنها هي التي يجب أن تنشىء الواقع وترسم حدوده وأبعاده، وإذا واجهته تنظر إليه من خلال قيمها لترقى به إلى ما هو الأفضل. حين نصحو على هذه الأبجدية ندرك أن إنشاء حضارة الإنسان على هدي عقيدة التوحيد التي تنشد التكامل والتوازن في بنية الإنسان وفي بنية المجتمع: نتيجةٌ طبيعة لوضع الهداية القرآنية في معالمها الخيرة موضع التطبيق

العملي حيث يكون الإسلام ـ فعلاً ـ هو منهج الحياة الذي تصاغ حياة الفرد والجماعة وفق كلياته وجزئياته بحيث لا ينعزل أيٌّ من الميادين العلمية والعملية ولا كلُ ما فيه تنمية القدرة الذاتية للأمة: عن أن يكون مصحوباً بما يخصه من ذلك المنهج على شكل موضوعي تتوافر له النية الخالصة والتخطيط المنهجي الدقيق.

من هنا ندرك حكمة تفصيل القول في أفضلية الإيمان والهجرة والجهاد في سنن لله بعد الآية المشار إليها في سورة التوبة، حيث قال الله تبارك وتعالى: ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ اللَّهِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴿٢٠﴾ يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ ﴿٢١﴾ ﴾.

الأمة المجاهدة: هذا التعريف المشرق المبارك هو الذي يجب أن يكون التعريف ذا المدلول الصادق النَّيِّر لأمة شاء الله أن تكون خير أمة أخرجت للناس، وجعلها أمة وسطاً تشهد على الناس..

وتغيير واقع الأمة أمام تحديات لا يرعوي أصحابها. منوط بأن يَعود المسلمون إلى صدق الانتماء، فيكونوا أمة مجاهدة بالمعنى الحقيقي، وليس هذا فحسب، بل إن الإنسانية قد طال انتظارها لعودة أمة محمد بن عبد الله عودة واعية مظفَّرة تقضي على ما أصاب ويصيب الإنسان من هرج ومرج، كما تضع حداً للعدوان على المسلمين في عقيدتهم وأرضهم وثقافتهم.. تضع حداً لهذا الاعتداء الصارخ على الحق والحرية وكرامة الإنسان من أولئك الذين يزعمون أنهم حماتها، فباسم الإنسان، يُهمَل الإنسان، وتحت الشعارات الحضارية، ودعاوى الديمقراطية: تنتهك حرمات الشعوب، ويُقضى على المد الحضاري المتوازن البعيد عن العَرَج، وباسم الحقوق والحريات تغتصب الحقوق، وتصادر الحريات.

إن الآيات الكريمة تقود هذه الأمة ـ وهي تحاول أن تستكمل بناء وجودها الذاتي من جديد ـ .. تقودها إلى أن تكون الأمة المجاهدة للعدو الداخلي من داخل النفس، والعدو الخارجي لا من أجل نفسها فحسب ولكن من أجل الإنسانية جمعاء في مواجهة أعداء الإنسانية والحق والحرية كائناً من كان المظلوم الذي تنوشه سهام المؤذين الذين تكذِّب تصرفاتُهم دعاواهم المتحدة على الزخرفة والافتراء والتمويه!!

الرسالة الإنسانية.. والبناء الحضاري

«٤»

كان مما أشرنا إليه من قريب: أن الأمة المسلمة عندما تستأنف طريقها لتكون المجاهدة بحق ـ على ما لهذه الحقيقة من شمول ـ لا تكون وفية لنفسها فحسب، ولكن تكون وفية للإنسانية كلها؛ لأن رسالة الإسلام رسالةٌ إنسانية تستعلي على الحدود والقيود. ونحن نرى في عصرنا الحديث ـ بجانب النكبات التي تلم بأمتنا من هنا وهنا ـ عَرَج الحضارة المادية؛ لأنها أهملت وتهمل الحقيقة التي يجب أن يقوم عليها البناء الحضاري بشقيه المادي والروحي مدنية وثقافة، لقد أهملت العقيدة التي تضمن سلامة المنطلق في التفكير والثبات في كريم الأخلاق، وسلامة الحركة في الإفادة من تسخير الكون للإنسان كما أراد الله تعالى، كما تضمن لوناً من التكامل والتوازن ـ في بنية الإنسان وعلاقته بالكون والحياة ـ يباعد بين تلك الحضارة وبين أن ينمو جانب على حساب جانب آخر، وأن تضيع القيم في غمرة التسابق على المادة، والأثرة في السلطان والتحكم في مصائر الشعوب.

وغير خافٍ أن الحضارة التي تهمل الجانب الروحي، تُضيع الإنسان الذي هو عمدة الأمر وعماده ـ كما أراد الله ـ وفي الوقت نفسه تجعل منه مخلوقاً يستخدم منجزات الحضارة المادية ومعطيات العلم التقني فيما لا يجوز استخدامها فيه من الأذى وطغيان الإنسان على أخيه الإنسان. ناهيك عن فقدان الشعور بالسعادة مبتغى الجميع.

وبذلك تختل القيم، وتهتز المعايير، وتصبح الجماعات البشرية في وضع لا تغبط عليه؛ لأنها نهب مقسَّم بين ظالم ومظلوم. أجل تصبح تلك الجماعات في وضع لا تغبط عليه، مهما توافر لها أو لبعضها من وسائل الترفيه ومظاهر الحياة المادية بألوانها وأشكالها.

وتعدد المكاييل عند أكبر قوة دولية مسيطرة اليوم لا تخفى!!

من هنا يجد المرء نفسه مشدوداً إلى معاودة النظر في تلكم الآيات التي في سورة التوبة استجلاءً للغرض الذي من أجله ـ والله أعلم ـ كان تأكيد فضيلة أولئك الذين جمعوا إلى الإيمان هجرةً إلى الله ورسوله، وجهاداً في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم؛ فهم أعظم درجة، ولهم مالهم في الآخرة من النعيم المقيم في جنات الخلد يفوزون به عند أحكم الحاكمين! ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴿٢٠﴾ ﴾.

الإيمان والهجرة إلى الله ورسوله قبل فتح مكة، والجهاد في سبيل الله بالأموال والأنفس، هذه الأمور العظام على ساحتي الدعوى والعمل: كانت شاهد صدق على أن الإيمان قد خالطت بشاشته القلوب، وبرهاناً يقينياً على حال من القيام بمقتضياته، سمت بأصحابها ليكونوا أعظم درجة عند الله.

وليس هذا فحسب، بل ختمت الآية بأن جعلتهم هم الفائزين بما توافر لهم من الإيمان الصادق ومستلزماته، قال تعالى: ﴿ وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴾.

وما أُحيلاها بشارةً كريمة من ربهم سبحانه برحمة منه ورضوانٍ وجناتٍ لهم فيها نعيم لا ينقضي، وهم خالدون في هذه الجنات أبداً.

وذلك كله أجر من الله الكريم المنان؛ لأنه جل وعلا عنده أجر عظيم ﴿ يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ ﴿٢١﴾ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٢﴾ ﴾.

ألا ما أكرم هذه الحوافز التي تنشئها العقيدة، وما أعظم ما تدفع بأصحابها إلى ميادين البذل والعطاء على كل صعيد؛ لأن ما عند الله خير وأبقى، والله تبارك وتعالى قد اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويُقتلون وعداً عليه حقاً في التوراة والإنجيل والقرآن.

إن انطلاق الأمة في ميادين العلم والبناء ـ بكل مضامينه ومفهوماته ـ إعداداً للقوة واستعداداً للجهاد في سبيل الله: هو المؤشر الفيصل بين مرحلتين؛ لأنه يعني أن الأمة قد بدأت تضع أقدامها على الطريق، لا من أجل أغراض دنيوية قريبة يلهث وراءها المتبطلون، أو اعتداء وتجاوز للحق وإنسانية الإنسان ولكن لله وفي سبيل الله، وذلكم وحده أبداً إيذان بانتصار الحق على الباطل في النفوس، وهو الخطوة الأولى للانتصار العظيم في الداخل والخارج، في تحقيق للوجود الذاتي الذي يضمن استقلالية القرار، وسلامة الوجهة مهما تلبَّدت غيوم الفتن وتداعيات السوء. ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله.

والله غالب على أمره ولكن كثيراً من الناس لا يفقهون.

* * *